

دور زوايا منطقة الجلفة في الخدمة الاجتماعية إبان الفترة الإستعمارية

الدكتور: فشار عطاء الله
الأستاذ: هزرشي عبد الرحمان
جامعة الجلفة – الجزائر

مقدمة

إن الزوايا بيوت الرحمان رسالتها نشر العلم والمعرفة ومنهجها سلوك طريق الاستقامة والاعتدال ، وهي المؤسسات الحضارية التي كانت ومازالت قلاعاً حصينة في وجه الاستعمار والتبشير ، حفظت قيم الأمة وحصنت أبنائها من التغريب والتنصير .

ارتبطت الزوايا بتاريخنا الطويل ، وكان لها الدور الكبير في التربية والتعليم على مر العصور ، ولم يقتصر دورها في التعليم فقط بل كانت لها وظائف أشمل شمولية الدين الإسلامي ، فلقد كانت مدارس ومعاهد للدراسة والعلم ، وكانت خلوات للتربية الروحية والإيمانية ، كما كانت مجالس للذكر والتلاوة ، وملتقيات لإصلاح ذات البين، كما كانت رسالتها اجتماعية تسعى لنشر المحبة والتعاطف والتضامن بين المؤمنين .

خطة البحث :

المبحث الأول : مفهوم الخدمة الاجتماعية وتاريخها ومجالاتها

تعريف الخدمة الاجتماعية

تاريخ الخدمة الاجتماعية

مجالات الخدمة الاجتماعية

المبحث الثاني : الخدمة الاجتماعية في الشريعة الإسلامية

النصوص الشرعية

التطبيقات العلمية

المبحث الثالث : زوايا منطقة الجلفة وجهودها في الخدمة الاجتماعية

الزوايا في الجزائر

مجال الخدمة الاجتماعية المقدمة من طرف الزوايا :

1- التعليم

2- التربية الروحية

3- رعاية الفقراء

خاتمة

تعريف الخدمة الاجتماعية :

التعريف اللغوي : خدم خدمة ، أي قدم خدمة والخدمة المساعدة والإنسان الخادم الذي يخدم الآخرين .

جاء في لسان العرب وفي مختار الصحاح خدمه يخدمه خدمة بالكسر، والخادم واحد الخدم غلاما كان أو جارية ، وخدمه ساعده في العمل وقام بحوائجه ولوازمه .

وفي معجم مقاييس اللغة : هو إطفاء الشيء بالشيء ... ومنه اشتقاق الخادم لأنه يطيف بمخدومه .

التعريف الاصطلاحي : لقد وردت الكثير من التعريفات للخدمة الاجتماعية نختار بعضها لشمولها ودقتها، فقد عرفها مادلين دلبرال بقوله : ((الخدمة الاجتماعية هي الجهود العملية والعلمية التي تهتم بخدمة الفرد غير القادر على الحصول على نصيبه من الخير في المجتمع وتهتم ثانيا بمساعدة المجتمع غير الكامل على القيام بمهمته الوقائية نحو الأفراد)) (1) .

وعرفتها هيئة الأمم المتحدة عام 1960 : ((الخدمة الاجتماعية تهدف إلى تحقيق التكيف والتفاعل

المتبادل بين الأفراد وبيئاتهم الاجتماعية وتخصص لذلك مجموعة من البرامج والأنشطة المنظمة)) (2)

وعرفها المؤتمر الدولي للخدمة الاجتماعية في باريس 1928 : ((عبارة عن مجموع الجهود لتقديم المساعدة في النواحي التالية :

- تخفي الآلام التي تنشأ عن البؤس وهي الخدمة الاجتماعية الملطفة .
- وضع الأفراد والأسر والجماعات في ظروف ملائمة وهي الخدمة الاجتماعية الشفائية
- منع وقوع الولايات الاجتماعية وهي الخدمة الاجتماعية الوقائية
- تحسين حال المجتمع ورفع مستوى المعيشة وهي الخدمة الاجتماعية الإنسانية)) (3)

ومن خلال هذه التعريفات يتبين أن الخدمة الاجتماعية هي :

المعرفة النظرية والعلمية لمساعدة الفرد والجماعة والمجتمع وهي خدمة فردية وجماعية واجتماعية ، فالمعرفة النظرية هي دراسة الحالة ومحاولة الوصول إلى نظريات تفسرها وقوانين تحكمها . والمعرفة العلمية هي دراسة الحالة وإيجاد العلاج والحلول لها ثم تنفيذ الخطة للقضاء على المشكلة والمساعدة هي عبارة عن تلك الجهود المبذولة لفائدة الفرد و الجماعة والمجتمع)). (4)

أهداف الخدمة الاجتماعية :

تهدف الخدمة الاجتماعية إلى تكوين و تأهيل الأفراد الذين في مقدرتهم الجسدية والفكرية والعقلية خدمة مجتمعهم ، ولا يتم ذلك إلا بدراسة ووضع الخدمات الاجتماعية الضرورية في جميع ميادين المجتمع . فالعمل الاجتماعي معركة مستمرة ضد مظاهر التخلف والفقر والمرض ، وهي معركة متعددة الجبهات وتلك رسالة إنسانية ، فالفعل الاجتماعي لا ينتظر مردودا اقتصاديا سريعا وربما لا يحقق ذلك مطلقا . ولذلك فإن هدف التنمية الاجتماعية - التي هي هدف إسلامي - هو التغير النوعي في المجتمع . (5) وذلك لأن تحقيق أي تقدم ظاهري أو مادي في مجتمع ما لن يكون له أدنى قيمة إذا لم ينعكس هذا التقدم على حياة كل فرد في ذلك المجتمع بحيث يكون التقدم سبيلا حقيقيا لأمنهم وزيادة رفايتهم .

مجالات الخدمة الاجتماعية :

إن تطور الخدمة الاجتماعية في العصر الحاضر جعل فيها أسلوبا علميا و عمليا يشمل كافة الميادين التي يحتاجها المجتمع المتحضر اليوم .

ففي الميدان الاجتماعي تقدم الخدمات الصحية والسكنية ورعاية المحتاجين والمسنين ورعاية الشباب والطفولة وغيرها . أما في الميدان التربوي فتقدم للأفراد منذ دخولهم إلى المدرسة إلى أن يتخرج من الجامعة وذلك من خلال تخصيص منح الطلبة وتوفير السكن والغذاء وتخصيص فصول دراسية وإنشاء قاعات المطالعة . وتنظيم ملتقيات وندوات ومحاضرات حول التعليم بغية غرس حب العلم والتربية في نفوس الأجيال. وكذا في الميدان الثقافي وفي ميدان العدالة ومؤسسات إعادة التربية ، من خلال إجراء البحوث

والدراسات وتزويد هيئات العدالة بتلك الأبحاث والدراسات بغية الوصول إلى حلول ملائمة للقضاء على الجريمة سواء في وسط الأحداث المنحرفين أو حتى المجرمين الكبار ، لحمايتهم والإشراف عليهم والتكفل بهم ليصبحوا أفراداً صالحين في المجتمع . (6)

الخدمة الاجتماعية في الشريعة الإسلامية :

قبل أن نتطرق إلى الخدمة الاجتماعية في الإسلام يجدر بنا أن نرجع إلى العصور التاريخية الأولى التي سبقت ظهور الإسلام .

فلقد تميز اليونانيون بفلسفتهم التي تعتني بالقوة وتمجدها، ولكن ذلك لم يمنع من وجود بعض الخيرين الذين كانوا يمدون يد المساعدة للفقراء والعبيد . وتأثر الرومان بالروح الشعبية فكانت الغلال والزيت والخبز يوزع على الفقراء .

ولم تعرف الشريعة اليهودية إلا من خلال أنواع قليلة من الإحسان للفقراء لقسوة اليهود، وأما الديانة المسيحية فظهرت فيهم أنواع الإحسان إلى الجار ومساعدة الأطفال والمرضى وكان الرهبان يقومون بذلك . أما في الشريعة الإسلامية لقد بلغت الخدمة الاجتماعية أسمى صورها في النصوص الشريعة الإسلامية وسمت بتلك الروح إلى أعلى العليين فالزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام تمثل جزءاً من المال يدفعه الغني إلى أخيه الفقير ، وهو حق الفقير في مال الأغنياء >> واللذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم << (7) ، ولم يكتف بالحث على الزكاة بل أمر بالهبات والصدقات لإعانة الفقراء والتكفل بالمحتاجين وها هي بعض النصوص التي تدعو إلى مساعدة من هم بحاجة إلى ذلك :

قال تعالى : >> وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين << . (8)

قال تعالى : >> وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين << . (9)

قال تعالى : >> يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة << . (10)

وقال تعالى >> وأصلحوا ذات بينكم << (11)

وقال تعالى >> إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم وأنقو الله لعلكم ترحمون << (12)

وقال تعالى >> فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر << (13)

وأما الأحاديث فإنها كذلك لا تحصى كثرة ، فقد كان رسول الله (ص) يضرب المثل في الإنفاق في سبيل الله وخدمة الناس ، فقد كان (ص) ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر ، ويسعى في إصلاح ذات البين ، ولم يترك باباً من أبواب الخير التي يقدمها للناس إلا كان سباق إليه وقدم أروع الأمثلة على ذلك وحث على العمل بها .

قال (ص) >> مازال جبريل يوصني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه << . (14)

قال (ص) << ليس المؤمن الذي يشبع وجاره إلى جنبه جائع >> . (15)

وفي مجال العلم والتعليم قال (ص) << من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع >> . (16)

وقال (ص) << إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في حجرها وحتى الحوت يصلون على معلم الناس الخير >> . (17)

وحت الإسلام في جانب آخر مهم من جوانب الإنفاق في سبيل الله على عمل خيري دائم وهو الوقف الذي انتشر في بداية ظهور الإسلام . فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : فما أعلم أحدا ذا مقدرة من أصحاب رسول الله (ص) من المهاجرين والأنصار إلا حبس مالا من ماله صدقة موقوفة لا تشتري ولا تورث ولا توهب وتتابع المسلمون جيلا بعد جيل يوقفون الأراضي والبساتين والدور وأعمال البر ، مما ملأ المجتمع الإسلامي بهذه المؤسسات التي بلغت من الكثرة يصعب إحصاؤها . (18)

وكان عمر بن الخطاب من أبرز الشخصيات في الخدمة الاجتماعية فكان يعتني بنفسه بالفقراء واليتامى ويتفقدهم ويبحث عنهم ومن بعده سعى الخلفاء إلى العناية بالفقراء وبناء المستشفيات وجعل الرواتب للمعوزين والعميان والأرامل واليتامى ومن أهم المؤسسات الخيرية المساجد التي كان الناس يتسابقون إلى إقامتها ، ومنها المدارس والمستشفيات ومنها الخانات والفنادق للمسافرين والمنقطعين من ذوي الحاجة ومنها التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء للعلم وعبادة الله عز وجل ومنها بيوت للفقراء يسكن فيها من لا يجد مأوى أو لا يستطيع أن يستأجر دارا ، منها السقايات أي وقف المياه الصالحة للشرب في الطرقات العامة ومنها المطاعم الشعبية التي تقدم الطعام والخبز واللحم (19) وغيره كثير .

الزوايا :

ومن أبرز ما ميز البلاد الإسلامية في العصور المتأخرة بناء الزوايا والرباطات ، وفي المدن وفي الأرياف وفي الجبال الشاهقة والصحاري القاحلة ، فقد انقطع العباد والعلماء يبتثون عقائدهم ويلقون أتباعهم الأذكار والأوراد ويعلمون تلاميذهم العلوم الشرعية والعربية المختلفة ، مبتعدين عن صخب الحياة الدنيا مؤثرين العزلة والانقطاع إلا ما تدعو إليه الحاجة .

فمن بين المدن الجزائرية التي اشتهرت بكثرة زواياها الجزائر العاصمة ، ومدينة قسنطينة ، وتلمسان وبجاية ولم يقتصر بناء الزوايا كما ذكرنا على المدن الكبيرة بل انتشرت في الأرياف وفي الصحراء ولقد تجلت الخدمة الاجتماعية التي قدمتها زوايا المنطقة في الجوانب التالية :

أولا : التعليم في الزوايا

ويظهر الدور الايجابي للزوايا في التعليم فقد كانت مدارس ومعاهد لتعليم الشباب في كل المستويات ومراكز لتتوير العامة حتى أصبحت محجة للطلاب من كل الجهات ، وتحولت إلى مدارس عليا وجامعات

تدرس فنون العلم المختلفة من عقيدة وفقه إلى علوم اللغة وغيرها ، وكانت تلك المعاهد تضاهي جامعات العالم الإسلامي كالأزهر والقرويين والزيتونة - كما ذكر أبو القاسم سعد الله (20) وذلك لتنوع الدراسات فيها وكأن الشاعر سلطان بن علي بن منقذ الكتاني الذي وصف دمشق يصف تلك الزوايا والمعاهد الدينية ويشيد بفضلها حين قال :

ومدارس لم تأتأها في مشكل	إلا وجدت فتى يحل المشكلا
ما أمها مرء يكابد حيرة	وخصاصة إلا اهتدى وتمولا
وبها وقوف لا يزال مغلها	يستنقذ الأسرى ويغني العيلا
وأئمة تلقى الدروس وسادة	تشفي النفوس ودواؤها قد أغفلا

ثانيا : التربية الروحية في الزوايا

تتمثل التربية الروحية في نشر العقيدة والتربية على العبادة والمداومة عليها والسمو بالإنسان إلى المراتب العليا في مراقبة الله تعالى وحسن الصلة به ، وهنا هو أسمى الأدوار الذي أدتها الزوايا .

لقد أكدت الدراسات الغربية الحديثة على ضرورة هذا المجال في الخدمة الاجتماعية لما يعود على المجتمع من فائدة وخاصة أولئك الأشخاص الذين يعانون من الفراغ الروحي ، حيث تشير تلك الدراسات إلى أن أهم الأسباب الانتحار وتعاطي المخدرات والإدمان هو البعد عن الدين .

فالمجتمع الغربي بدأ يدرك أهمية الدين في الحفاظ على انسجام الإنسان مع نفسه ومجتمعه ومع الكون وهامهم ينادون بالرجوع إلى الدين كوسيلة إلى الاستقرار العقائدي وذلك بغرس وتوثيق وتأسيس العقيدة في النفوس والعقول لقد توصل علماء الغرب لذلك ودعوا إليه لان الحياة لا تستقيم بدون عقيدة ولا يستطيع الإنسان أن يحيا في هذه الدنيا بدون أن يتصل بربه ويعبده ويحبه ويأنس إليه .

إن الشيوخ والعلماء الربانيون أسسوا زواياهم على تلك المبادئ وانقطعوا عن الحياة الدنيا ونأوا عن زخرف الحياة الدنيا وآمنوا أنه لا تصلح أمتهم إلا بالعقيدة تملأ قلوب أبنائها والإيمان يسيطر على وجدانهم وأن وسيلة ذلك هو العبادة والذكر والإنس بالله عز وجل .

لقد كان المسلمون في ذلك الوقت بحاجة إلى دعاة وشخصيات قوية جامعة تجمع بين القرآن وتعليمه وتزكية النفوس فراح الشيوخ والعلماء يجددون دعوة الإيمان والعبودية الخالصة ويعيدون للأمة أخلاق المؤمنين المخلصين ، ولقد حققت الزوايا في ذلك نجاحا باهرا في تهذيب النفوس ، وإيقاد شعلة الإيمان في الأمة من جديد (21)

ثالثا : رعاية الفقراء والمحتاجين

إن مما يدل على رقي الأمة وجدارتها بالحياة واستحقاقها لقيادة العالم أن تسمو فيها النزعة الإنسانية في أفرادها سموا يفيض بالخير والبر والرحمة على طبقات المجتمع كافة بل على كل من يعيش على الأرض من إنسان أو حيوان وبهذا تتقدم الأمة و تبنى الحضارات على تلك الأسس المتينة من الإنسانية .

وأمتنا قد بلغت القمة في ذلك فلم تصل إلى ذلك أمة من الأمم، ومهما بلغت حضارة الغرب اليوم من تقدم في مجال الخدمة الإنسانية عن طريق المؤسسات الخيرية فإنها لن تصل إلى ما وصلت إليه أمتنا سواء في الوقت ازدهارها وقوتها أو حتى في الوقت انحطاطها وضعفها بل حتى في العصور التي كانت شعوبنا مستعمرة لأن الدوافع في أمتنا لعمل الخير هو التقرب إلى الله ابتغاء وجهه تعالى.

ومما يشهد لذلك الرقي الحضاري الإنساني الزوايا التي كان يؤمها الغرباء و المحتاجون والأرامل والأيتام فقد كانت تجمع بين التعليم والعبادة والنشاط الاجتماعي ويتجلى دورها أكثر في المظهر الاجتماعي فلا فائدة في الزاوية إذا لم يشعر أفراد المجتمع بهذه العلاقة بين عناصر التلقي والتعبد والخدمة ... فكانت الخدمة الاجتماعية نتيجة حتمية لجهود الزاوية وثمره حقيقة لوظيفة التعليم (22).

جاء في كتاب تنبيه الأحفاد إلى مناقب الأجداد : في حديثه عن زاوية سي علي بن دنيدينة (وفي سنة 1918 أصاب المنطقة قحط شديد حيث تفشت المجاعة والأمراض الخطيرة التي فتكت بالكثير من أبناء المنطقة فقام الشيخ علي بن دنيدينة بمبادرة كبيرة تشهد له يوم القيامة حيث فتح باب الزاوية على مصراعيه لإيواء الأيتام وإطعام للفقراء والمساكين والمحتاجين ، وقد بذل الشيخ في سبيل ذلك جهدا كبيرا حتى إنه رهن منزله من أجل ذلك ... ولم يفك الرهن إلا بعد وفاته عند ما تولى أخوه محمد بن دنيدينة شؤون الزاوية وسدد كل ديونها ...) (23)

ويذكر كذلك عن زاوية الشيخ سي عبد الرحمان بن سليمان النعاس أن مما سهر عليه الشيخ إلى جانب العبادة والتعليم ونشر الأخلاق الإسلامية الفاضلة ، أنه آلي على نفسه أن يكون عوناً للفقراء والمحتاجين والأرامل والأيتام متكفلاً بشؤونهم وإصلاح حالهم عملاً بحديث رسول الله (ص) >> خير الناس أنفعهم للناس << (24)

وذكر كذلك الشيخ سي عامر محفوظي في كتابة تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نائل عند حديثه عن زاوية سيدي محمد بن مرزوق ببلدية بنهار أن شيخ الزاوية لم يأل جهداً في تقديم المساعدة للفقراء والمساكين خاصة عند المحن والكوارث التي ألمت بالأمة فقال : (وانضم إلى الزاوية كثير من المعوزين والفقراء والمساكين فتكفلت بشأنهم وأطعمتهم من جوع وأعقب ذلك سنون واحتاج الكثير من الناس إلى الزاوية فأوتهم وساعدتهم طوال خمسة عقود من الزمن) . (25)

وعن الزاوية الجلالية لصاحبها سيدي عطية بيض القول يذكر الشيخ سي عامر : (وبسبب المجاعة التي ألمت بالمنطقة والخصاصة التي نزلت بالناس تكفلت الزاوية بالأيتام والأرامل والمساكين وكان من نتائج ذلك أن أصبحت الزاوية مدينة بديون ثقيلة أرهقت كاهلها ولم تؤد تلك الديون إلا بعد أزمان) . (26)

وهو نفس الدور الذي قامت به زوايا المنطقة ككل كزاوية سيدي بولرياح وسيدي محمد بن صالح وزاوية الشيخ سي أحمد بن سليمان وزاوية الشيخ سي الشريف بلحشر، فقد كانت ملجأ للفقراء والمحتاجين وقد كان مؤسسها الشريف بلحشر يبعث كل ليلة مناديا ينادي في أسواق مدينة الجلفة وشوارعها لجلب المحتاجين والأرامل والأيتام لإطعامهم في سبيل الله ...) (27)

خاتمة :

هذه نبذة يسيرة عما قدمته زوايا منطقة الجلفة في مجالات الخدمة الاجتماعية التعليمية والتربوية والاجتماعية وهذا المجالات أكثر وأكبر من أن نلم بها في هذه العجالة وإنما هي إشارات لعلها تثير الباحثين إلى المزيد من البحث والتتقيب وخاصة أن الدراسات والبحوث في هذه الجانب قليلة جدا إن لم نقل منعدمة . والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

الهوامش :

1. رشيد زرواتي ، مدخل إلى الخدمة الاجتماعية ، ص 15
2. عبد العزيز فتح الباب ، الخدمة الاجتماعية في الدول النامية ، المكتبة الانجلومصرية ، القاهرة ص 192.
3. رشيد زرواتي المرجع السابق ص 16 .
4. المرجع نفسه ص 16 .
5. أبو المجد أحمد ، من أجل منهاج إسلامي للعمل الاجتماعي ، دار البعث قسنطينة ، ط 1 ، 1982 ، ص 25 .
6. رشيد زرواتي ، المرجع السابق ص 70 .
7. سورة المعارج آية 25 .
8. سورة البقرة آية 195 .
9. سورة سبأ آية 39
10. سورة البقرة آية 254
11. سورة الأنفال آية 01 .
12. سورة الحجرات آية 10
13. سورة الضحى آية 10
14. متفق عليه
15. خرجه السيوطي
16. رواه الترمذي
17. رواه الترمذي
18. مصطفى السباعي ، من روائع حضارتنا ، دار السلام للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ص 124 .
19. مصطفى السباعي نفسه ، ص 125
20. أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1998 ج 1 ، ص 273 .
21. مصطفى السباعي مرجع سابق ص 135 .
22. أبو الحسن الندوي ، ربانية لا رهبانية ، دار الإسراء ، الجزائر ، ص 36 .

23. محمد مايمون ، زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي دورها التعليمي وتراثها الفقهي وأثرها في منطقة القبائل ، رسالة ماجستير جامعة الجزائر كلية العلوم الإسلامية ، 2003
24. الشيخ على النعاس ، تنبيه الأحفاد بمناقب الأجداد ص 101
25. الشيخ سي عامر محفوظي ، تحفة السائل ص 27 .
26. نفسه ص 31 .
27. نفسه ص 34 .

المراجع :

1. رشيد زرواتي ، مدخل إلى الخدمة الاجتماعية
2. عبد العزيز فتح الباب ، الخدمة الاجتماعية في الدول النامية ، المكتبة الانجلومصرية ، القاهرة
3. أبو المجد أحمد ، من أجل منهاج إسلامي للعمل الاجتماعي ، دار البعث قسنطينة
4. مصطفى السباعي ، من روائع حضارتنا ، دار السلام للنشر والتوزيع ، القاهرة
5. أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 1
6. أبو الحسن الندوي ، ربانية لا رهبانية ، دار الإسرائ ، الجزائر
7. محمد مايمون ، زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي دورها التعليمي وتراثها الفقهي وأثرها في منطقة القبائل ، رسالة ماجستير جامعة الجزائر كلية العلوم الإسلامية ، 2003
8. الشيخ على النعاس ، تنبيه الأحفاد بمناقب الأجداد
9. الشيخ سي عامر محفوظي ، تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نايل .